شفيق غُرْبال

ومدرسة التاريخ الوطني

أ. علي بركات

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة حلوان

obeikan.com

obeikan.com

في مقدمـة كتابـه «عجائب الآثار» تحدث الجبرتي عن تلك النظرة الهابطة التي كان ينظر بها معاصروه إلى التاريخ بقوله : «ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني (من المعرفة) تعني بتدوينه سـلفًا عن خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين»[1].

غير أن هذه النظرة الهابطة للتاريخ أخذت تتغير تدريجيًّا خلال القرن التاسـع عشر. حيث إنه ابتداء من عام ١٨٣٧ أصبح التاريخ علمًا معترفًا به ضمن مناهج الدراسـة بمدرسـة الألسن، ثـم بمدرسـة دار العلوم بعد ذلك، هذا التطور في النظـرة إلى التاريخ وبالتالي الاعتراف به كعلم كان وراءها عدد من العوامل:

١- **التطور الذي حدث في النظام التعليمي** ابتداءً من عهد محمد علي وإدخال التعليم الحديث في مصر، وما صاحب ذلك من إرسال البعثات إلى أوروبا في معظم التخصصات المعروفة في ذلك الوقـت. وعودة هؤلاء المبعوثين والدور الذي لعبه هؤلاء في عملية تطوير التعليم، وخاصة رفاعة رافع الطهطاوي، وقد نتج عن ذلك إدخال التاريخ كعلم في برامج الدراسة في مدرسة الألسن عام ١٨٣٧، وقـد صاحب عملية تدريس التاريخ بهذه المدرسـة ترجمـة لمؤلفات تاريخية مهمة قام بها رفاعة وتلاميذه، وعندما أنشـئت مدرسـة دار العلوم كجزء من النهضة التعليمية التي شـهدها عصر إسماعيل والتي قادها علي مبارك أصبح التاريخ ضمن مناهجها، وكان التاريخ العام ضمن المـواد التي شـملتها خطة الدراسـة الـتي تم وضعهـا عام ١٨٧٤، وعندما عين الشـيخ محمد عبده مدرسًـا للتاريخ بمدرسـة دار العلوم عام ١٨٧٨ كان يقوم بقـراءة مقدمة ابن خلدون على طلابه كجزء من مقرر التاريخ.

٢- **انتشـار الطباعـة:** التي بدأت بشـكل فعلي بإنشـاء مطبعة بـولاق عام ١٨٢٢ التي تطورت لتصبح أكبر مطبعة عربية في العالم العربي في القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى المطابع الأخرى الـتي أنشـئت خلال عصر محمد علي ، وفي هذه المطابع طبعـت الكتب التاريخية مترجمة ومؤلفة

---

(١) عجائب الآثار، مطبعة بولاق ١٨٨٠، ج١، ص ٥.

مما جعلها متاحة حتى لغير المتخصصين ، فيذكر أحمد عرابي في مذكراته: أن سعيد باشا أهداه كتاب تاريخ نابليون بالعربية ويقول «إن اطلاعه على ذلك الكتاب كان سببًا في مطالعته لكثير من التواريخ الغربية»[1].

٣- **الدور الذي لعبته الصحافة في نشر المعرفة التاريخية** : فقد عرفت مصر الصحافة منذ الحملة الفرنسية لكنها توقفت بخروج الفرنسيين، ثم أنشأ محمد علي الوقائع عام ١٨٢٨، لكنها توقفت عن الصدور خلال عهدي عباس وسعيد، إلا أن الصحافة قد شهدت ازدهارًا خلال عصر إسماعيل حيث ظهرت العديد من الصحف، وإن كان بعضها لم يعمر طويلًا إما بسبب صعوبات مالية أو بسبب موقف الخديو إسماعيل منها، وخلال تلك الفترة والفترة الأولى من عهد الاحتلال كانت أهم دور النشر في مصر يملكها مهاجرون سوريون. غير أن الفترة التالية شهدت زيادة كبيرة في عدد الصحف الذي وصل عددها إلى ١٧٦ صحيفة في القاهرة وحدها عام ١٩٠٤م، كما تم كسر احتكار السوريين لملكية الصحف، وأصبحت الأحزاب والتنظيمات السياسية التي ظهرت في ذلك الوقت لها صحفها الخاصة بها والتي تعبر عن وجهة نظرها، وأصبحت الصحف تنقل المعلومات المثارة على صفحاتها إلى كل ركن في مصر بما في ذلك المعلومات التاريخية، وكانت صحيفة «روضة المدارس» منذ عهد إسماعيل تنشر مقالات ذات طابع تاريخي لرفاعة رافع بل إن كتاب «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز» قد بدأ رفاعة في نشره على حلقات بهذه المجلة .

٤- **الجمعيات العلمية**: ولعل أبرزها الجمعية الجغرافية التي أنشئت عام ١٨٧٥ ، وكان الهدف من إنشائها العناية بالأبحاث الجغرافية والأبحاث العلمية بشكل عام . وفي هذا الاتجاه نشرت الجمعية أبحاثًا أثرية وتاريخية لمؤرخين من أمثال محمود الفلكي وأحمد كمال وغيرهما.

٥- وهناك عامل أخير يتعلق بانتشار الثقافة وارتفاع وعي الشعب خلال التحرك الوطني في أواخر عصر إسماعيل ، وهو التحرك الذي انتهى بقيام الثورة العرابية، وعملية التعبئة الشعبية

---

(١) في هذا راجع :جمال الدين الشيال، التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٦٦ .

التي صاحبتها والتي لعب فيها عبد الله نديم دورًا واضحًا[١].

هـذه العوامل خلقت وعيًا بأهمية التاريخ لدى المجتمع، وعلى هذا فقد شـهد القرن التاسـع عشر كتابات تاريخية تختلف من حيث المنهج عن كتابات المؤرخين السابقين على القرن التاسع عشر، كما ظهر نوع جديد من الكتابة التاريخية يمكن أن يصنف ضمن المذكرات السياسـية التي كتبها أولئك الذين عاشـوا تجربة الثورة العرابية وعاشـوا أحداثها ، من أمثال : أحمد عرابي وعبد الله نديم ، والشيخ محمد عبده ، ومحمود فهمي.

وفي هـذا الاتجـاه يقال أن الشـيخ محمد عبده قد ألـف كتابًا في فلسـفة الاجتماع والتاريخ كان يضم محاضراته التي ألقاها في مدرسـة دار العلوم خلال عامي ١٨٧٨/ ١٨٧٩ عن ابن خلدون وآرائه في الاجتماع[٢].

وفي ظـل الاحتلال البريطاني تصـدت العناصر الأجنبية والمتمصرة لكتابة تاريخ تلك الفترة، فكتـب ملنر كتابـه «إنجلترا في مصر» ، وكتـب كرومر كتابه «مصر الحديثـة» ،كما كتب خليل نقاش «مصر للمصريين» . وكلها تقوم على تشـويه الثـورة العرابية وإدانتها كحركة وطنية، ويبدو أن ذلك كان وراء ظهور تلك المذكرات السياسـية وفي مقدمتها مذكرات أحمد عرابي التي كتبها بعـد عودتـه من المنفى وانتهى من كتابتها في ٢٦ يوليو سـنة ١٩١٠، والتي لـم تنشر نشرًا كاملًا إلا بعـد قيام ثورة سـنة ١٩٥٢. ومن الواضـح أن هذه المذكرات قد كتبها أحمـد عرابي للرد على تلك الكتابات التي حاولت تشـويه الثورة فهو يقول في مقدمتها: « أما بعد فإني قد اطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والأفرنجية الموضوعة في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فلـم أجد فيها ما يقرب من الحقيقة أو يشـفي غليل روادها، لذلـك رأيت أن أكتب للناس كتابًا يهتدون به إلى تلك الحقيقة، تمحيصًا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة »[٣].

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢) المرجع السابق .

(٣) كتاب الهلال، عدد مايو ١٩٩٠، ص ٧، ١١، ١٢.

وكتب محمد عبده كتاب : تاريخ أسباب الثورة العرابية ، نشُرت بعض أجزائه في كتاب محمد رشـيد رضا «تاريخ الأستاذ الإمام» ، كما اسـتفاد منه صبري السربوني في إعداد رسالته للدكتوراه في الجزء الخاص بالثورة العرابية، ويقول جمال الدين الشيال أن اختفاء، ذلك الكتاب وعدم نشره يرجعان إلى ما احتواه من معلومات وحقائق عن أسباب الثورة ورجالها.

وكتـب عبـد الله نديم مذكراته السياسـية والتي نشرها محمد أحمد خلـف الله وقدم لها عام ١٩٥٦ وهي تلـقي بعـض الضوء على مقدمـات الثورة العرابيـة وأحداثها. كما كتـب محمود فهمي مذكراته التي قدر لها أن تنشر تحت عنوان «البحر الزاخر في أخبار الأوائل والأواخر».

أما ما كتبه رفاعة رافع الطهطاوي في مناهج الألباب عن فائض القيمة في العمل الزراعي فهو يقترب من التفسير المادي للتاريخ[1].

وعلى هذا فإن شفيق غربال ينتمي إلى جيل النهضة الفكرية التي شهدتها مصر الحديثة والتي بدأهـا رفاعـة رافـع الطهطاوي ، وقد تضلع كثـيرون من أبناء ذلك الجيـل في الثقافتين العربية والإسـلامية، وأضافـوا إليهما الكثـير من المنجـزات الفكرية التي شـهدتها أوروبا خلال عصر الاسـتنارة، فضلًا عـن تمكنه من المنهج التاريخي الذي يقوم على الربـط والتحليل والمقارنة مع قدرتـه على الأداء اللغـوي، وكان هذا الأداء والمنهج في التاريخ موضـع إعجاب طلابه ؛ فقد كان المنهج الجديد لم يسـبق للمؤرخين المسلمين أن مارسوه بهذا الشكل المستند إلى أنماط جديدة لم تكن معروفة في الفكر العربي.

ويمكن فهم الفكر التاريخي عند غربال على ضوء ثلاثة عوامل[2] :

الأول: «إن غربـال» قـد تلـقى المراحل العليا من دراسـته على يد المـؤرخ البريطاني المعروف «أرنـولد توينـبي» الذي حاول التوصـل إلى العوامل التي تحكـم قيام الحضـارات وانهيارها. وكان أهم القوانين التي توصل إليها في هذا المجال هو قانون التحدي والاستجابة ودور النخبة والقادة

(١) مطبعة الرغائب بمصر، ١٩١٢، ص ٩٣-٩٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في تقديم كتاب محمد علي الكبير، كتاب الهلال، عدد أكتوبر، ١٩٨٦ .

في دفع عجلة التاريخ، ومن ذلك ذهاب توينبي إلى القول بإن قيام الحضارة المصرية القديمة كان مرتبطًا بالتحدي الذي شكله النيل بفيضانه المدمر أحيانًا والمنخفض أحيانًا أخرى، الأمر الذي استلزم قيام سلطة الفراعنة ونخبهم المكونة من الكهنة والفنيين(١).

وتقوم نظرية التحدي والاستجابة عند توينبي على أن الحضارة ليست نتائج جنس معين أو بيئة جغرافية معينة، وإنما هي نتيجة للاستجابة لتحديات معينة تتسم بالصعوبة وتستثير الإنسان للقيام بجهد في التغلب على تلك الصعوبات. وأولها البيئة الطبيعية، ومن أجل التغلب على الطبيعة استطاعت شعوب معينة أن تصنع حضارة متقدمة؛ فحضارة الصين القديمة نتجت من طبيعة النهر الأصفر الذي لم يكن صالحًا للملاحة في بعض مناطقه فضلًا عن أن مياهه تتجمد في شهور الشتاء وقد كان ذلك دافعًا لظهور حضارة الصين..

وقد يكون التحدي بشريًا كما هو الحال في حالة إسبرطة وضيق مساحة أراضيها الزراعية، ويرى توينبي أن نشأة الحضارة وتطورها نتجت عن التحديات التي واجهها الإنسان وتمكن من التغلب عليها، وقد أوضح توينبي أن الظروف الطبيعية التي واجهها الإنسان هي التي حفزته للتقدم باستثارة قوى الإبداع فيه.

وقد يأتي التحدي من ظروف بشرية كعدوان أو تهديد خارجي. ويرى أرنولد توينبي أن التحدي المثير للاستجابة لا يجب أن يكون ضعيفًا بحيث لا يحفز الطرف الآخر على الاستجابة، ولا يكون بالغ الشدة بحيث يحطم روح الطرف المقاوم؛ وإنما يكون التحدي في مستوى يستثير الطاقات المبدعة لدى الشعب الواقع عليه التحدي، ومعه تصبح الاستجابة للتحدي عملية تؤدي إلى ارتقاء المجتمع في جوانبه الروحية والفكرية. وعلى هذا فالتاريخ من هذا المنظور سلسلة من التحديات والاستجابة لها. وأن هذا التحدي تقوم به أقلية مبدعة، وأن عمليات الإبداع الاجتماعي هي نتيجة أعمال أفراد عباقرة، أو أقليات عبقرية وأن صناع التاريخ هم تلك الشخصيات الخلاقة التي تقوم بأعمال يعجز غيرهم عن القيام بها، ويظهر أولئك الأفراد

---

(١) المرجع السابق..

في صورة فلاسفة وقديسين ورجال دولة ، وهؤلاء العظماء هم الذين يصنعون المدنيات ويعملون على تقدمها. .

وخلاصة رأي توينبي أن ظهور الحضارات هو نتيجة لتحد صادر إما عن البيئة المادية أو عمل بشري أو كليهما[١].

ويجعل توينبي من قانون التحدي والاستجابة سببًا في انهيار الحضارات ؛ فتكرار التحدي التي تواجهه حضارة معينة إما أن ينتهي بالاستجابة لذلك التحدي فتستمر تلك الحضارة في التقدم ، وإما أن تخفق تلك الحضارة في مواجهة ذلك التحدي فتنهار وذلك عندما تتكرر الاستجابات المخفقة على تلك التحديات. ثم يذكر توينبي أسباب أخرى لانهيار الحضارات منها: إخفاق الأقليات المبدعة، وانصراف الجماهير عنها وذلك عندما تفقد الأقلية المبدعة طاقتها الإبداعية ومن ثم تتحول إلى أقلية متسلطة. عند ذلك تسحب الجماهير ثقتها من تلك الصفوة المبدعة وتكف عن محاكاتها عن ذلك يحدث انشقاق في الكيان الاجتماعي وتتداعى وحدة المجتمع[٢].

وقد ضمن أرنولد توينبي نظريته في التحدي والاستجابة مؤلفة الضخم والذي استغرق إعداده حوالي أربعين عامًا وبلغت عدد صفحاته ٦٢٩٠ صفحة، وقد انتهى توينبي من ذلك العمل عام ١٩٦١ وجاء الأصل في عشر مجلدات. أضاف إليها توينبي مجلدين رد فيهما على الانتقادات التي وجهت لذلك العمل، وكانت وحدة الدراسة عند توينبي المجتمعات والحضارات وليس العصور والتي قسمها إلى ٢١ حضارة بخلاف الحضارة التي أسماها الحضارات المتحجرة ومنها الحضارة اليهودية[٣].

وقد كان غربال شديد الإعجاب بأستاذه ونظرياته في تفسير التاريخ ، الذي طبق غربال

(١) نيفين علم الدين، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م

(٢) مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد شبل، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٦٠، ١٦٨، ٢١٤.

(٣) نيفين علم الدين : المرجع السابق .

جوانب منه على بعض دراساته خاصة كتابه «تكوين مصر» ؛ ففي هذا الكتاب يتضح تأثر غربال بمنهج توينبي؛ ففي كتابه « تكوين مصر » حاول شفيق غربال دراسة تاريخ مصر على ضوء حقائق المكان. وهو هنا يسبق ما قدمه سليمان حزين في حضارة أرض الكنانة وجمال حمدان في شخصية مصر.

أما كتاب شفيق غربال «محمد علي الكبير» ففيه تضخيم لدور محمد علي في تاريخ مصر الحديث وواضح فيه أيضًا تاثر شفيق غربال بفكر أرنولد توينبي حول الصفوة المبدعة.

ثمة عامل آخر ساهم في تحديد الرؤية التاريخية عند شفيق غربال ، هو إحساس غربال بدوره الثقافي الرائد ونزعته الأرستقراطية التي جعلته يركز على دور النخبة ويهمل التيارات الجماهيرية وينظر إليها من عل. ومن ثم ارتباطه بالتكتلات السياسية التي عرفت بأحزاب الأقلية والتي كانت تستقطب عددًا غير قليل من مفكري مصر الذين مجوا «ديماجوجية» الوفد حزب الأغلبية حتى عام ١٩٥٢. واصطدامه بحزب الوفد في أوائل الأربعينيات حين كان وكيلًا مساعدًا لوزارة المعارف وعودته لقاعات الدرس. حتى إذا ما عادت أحزاب الأقليات للحكم عاد غربال لتولي بعض الوظائف الرئيسية في حقل التعليم. في حين كان حكم الوفد مؤذنًا في كل مرة بعودته إلى الجامعة والتدريس. هذا العداء للوفد لعب دورًا في التقريب بين غربال والقصر. لقد ركز شفيق غربال في كتاباته التاريخية على القلة الموجهة والزعامات الفردية خاصة في مجال الفكر ، يتضح ذلك من الشخصيات التي عرض لها في أحاديثه الإذاعية كسقراط وأبي العلاء المعري وابن تيمية وجمال الدين الأفغاني وغيرهم والذين قال عنهم أنهم غيروا مجرى التاريخ[1].

ثالثًا: وهو عامل يتعلق بتبني جيل الرواد من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السربوني وشفيق غربال لنظرية الرجل العظيم في كتابة التاريخ ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب :

(١) أن جيل الرواد من المؤرخين المصريين قد شغلتهم قضية تمصير كتابة التاريخ المصري، بمعنى كتابته بأيدي مصرية ومن وجهة نظر مصرية بعد أن هيمن الأجانب على كتابة تاريخ

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد١١، سنة ١٩٦٣.

مصر لبعض الوقت.

(٢) أن طلائع الباحثين المصريين الذين تعلموا في الغرب من أمثال محمد رفعت ومحمد صبري السربوني وشفيق غربال لم يلتفتوا إلى المعركة التي كانت تدور في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بين المدرسة التقليدية التي ترى أن التاريخي هو علم تسجيل الحوادث، ووصفها وتسلسلها وترى أن الحدث التاريخي حدث متفرد، ومن الصعب أن نجد له أسبابًا موضوعية لأنه يتم بطريقة عشوائية يلعب الأبطال فيها دورًا بارزًا، وبالتالي فإن التاريخ الأجدر بالدراسة هو تاريخ الأحداث السياسية، والوقائع العسكرية، وهو من هذا المنظور تاريخ عظماء الرجال من أمثال الإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، ونابليون ومحمد علي وغيرهم من العظماء[١].

وبين المدرسة التي كانت تعارض هذا الاتجاه وهي مدرسة إميل دوركايم التي ترى أن الظواهر التاريخية، تحكمها قوانين موضوعية وأنها قابلة للاكتشاف، وأن مهمة المؤرخ هي اكتشاف هذه القوانين، وأنه يمكن استنباط أفكار أو صيغ عامة لتفسير الظواهر الاجتماعية من خلال دراسة التاريخ، وترى هذه المدرسة أن التاريخ الحقيقي لأي جماعة من الناس هو تاريخها الاجتماعي. ذلك لأن الفرد لا يتحرك في فراغ بل هو جزء من المجتمع، والمجتمع ليس قطيعًا معدوم الإرادة إزاء ما يتصوره القادة المبرزون.

لم يلتفت هؤلاء الباحثين إلى نتائج هذه المعركة، ومن ثم عادوا متأثرين بالفكر الليبرالي وما يرتبط به من تمجيد لدور الفرد والصفوة أكثر من تأثرهم بالمدرسة الاجتماعية في دراسة التاريخ[٢].

(٣) الدور الذي لعبته الملكية في عهدي فؤاد وفاروق في محاولة كتابة تاريخ مصر الحديث، مع إبراز الدور الإيجابي الذي لعبته أسرة محمد علي في هذا التاريخ وخاصة فرع إبراهيم، ومحاولة اجتذاب المؤرخين المصريين النابهين من أمثال شفيق غربال إلى جانب من استعانت بهم من

(١) حول مدرسة الرجل العظيم في تفسير التاريخ يمكن مراجعة: غوردون تشايلد، التاريخ، ترجمة عدلي برسوم، مكتبة القاهرة، بدون، ص ٦٥- ٧٠.

(٢) علي بركات، مقدمة كتاب الملكية الزراعية بين ثورتين، مؤسسة الأهرام، القاهرة، ١٩٧٩م.

الأجانب وفي هذا الاتجاه أنشئت الجمعية التاريخية الملكية التي أصبح شفيق غربال نائبًا لرئيسها المنتسب إلى الأسرة المالكة(١).

وأخيرًا : فإن شفيق غربال كان واحدًا من جيل الرواد الذين كان عليهم أن يخوضوا معركة ضارية من أجل تمصير الوظائف في الجامعة وتعريب الدراسة بها.

لقد كان جيل الرواد من المصريين لا يتعدى بضعة أساتذة كان معظمهم في الثلاثينيات من العمر مثل : طه حسين ، ومصطفى فهمي ، وأحمد أمين ، وعالم المصريات سليم حسن ، والمؤرخ شفيق غربال ، ومحمد كامل مرسي أستاذ القانون ، أما إبراهيم حسن أستاذ الطب المعروف فكان يكبرهم ببضع سنين حيث كان عمره يقترب من الأربعين عامًا عام ١٩٢٥ «العام الذي تحولت معه الجامعة إلى جامعة حكومية» . وكان على هؤلاء أن يخوضوا معركة في اتجاهين، الأول تمصير الوظائف في الجامعة وقد كانت مقاومة الفرنسيين والإنجليز لعملية تمصير الجامعة ضارية، وكانت السفارة البريطانية لا تزال لها نفوذها. وقد استمرت عملية التمصير حوالي ثلاثين عامًا بعد صدور تصريح فبراير عام ١٩٢٢م(٢).

وكانت كلية الحقوق أول كلية يتم تمصير منصب العميد فيها. وكانت الطب هي الكلية الثانية التي جرى تمصير وظائفها حيث حل المصريون محل الأجانب الذين تركوا الجامعة خلال الحرب الأولى وفي عام ١٩٢٩ أصبح على إبراهيم عميدًا للطب وكان الأجانب يشغلون ذلك المنصب منذ عام ١٨٩٠.

وفي الآداب أصبح طه حسين عميدًا للكلية عام ١٩٣٠ خلفًا لعميدها الفرنسي ، وكانت العلوم هي الأخيرة من كليات الجامعة التي أصبح عميدها مصريًا عام ١٩٣٦. ، وكانت كلية دار العلوم هي الوحيدة الذي كان عميدها مصريًا من البداية.

---

(١) أسد رستم: مقدمة كتاب وثائق الشام في المحفوظات الملكية المصرية، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٠م.

(٢) Reid, D. M. Cairo University and the Making of Modern Egypt Cambridge University Press, 1990, p. 99.

أما الاتجاه الآخر من المعركة فكان تعريب الدراسة في الجامعة ؛ ففي كلية الحقوق كان الطلاب المصريون يدرسون القانون بالفرنسية لعدة أجيال منذ أن كانت مدرسة للحقوق والتي كان عمرها يزيد على خمسين عامًا.

ففي كلية الحقوق والآداب سارت محاولات تعريب الدراسة جنبًا إلى جنب مع عملية تمصير وظائف أعضاء هيئة التدريس ، مع استثناءات محدودة لبعض المستشرقين الذين كانوا يحاضرون باللغة العربية وبعض المصريين في أقسام اللغات الأجنبية الإنجليزية والفرنسية. ويستثنى من ذلك كلية الطب وكلية العلوم التي استمر التدريس فيهما باللغة الإنجليزية، وإن كان قد جرى التأليف والتدريس فيهما باللغة العربية على الرغم من ذلك استمرت التعبيرات ذات المضمون العلمي تدرس بلغتها.

وفي مجال دراسة التاريخ فإن شفيق غربال وسليم حسن قد خاضا المعارك نفسها من أجل تمصير الوظائف ، وتعريب الدراسة ، وتمصير كتابة التاريخ ، في مواجهة الباحثين الأجانب الذين استعان بهم الملك فؤاد في كتابة تاريخ أسرة محمد علي ، والذين كان بعضهم يقوم بالتدريس في الجامعة[١].

إن أهمية شفيق غربال تكمن في أن منهجه قد تأثرت به أجيال من طلابه حيث أشرف غربال على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه منها : تاريخ التعليم في عصر محمد علي، وتاريخ التعليم منذ أواخر عصر محمد علي إلى أوائل عصر توفيق لأحمد عزت عبد الكريم، وعلاقة إسماعيل بالباب العالي لأحمد عبد الرحيم مصطفى، والفلاح المصري في عهد محمد علي، وتاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي لأحمد الحتة، وتطور الصحافة المصرية لإبراهيم عبده، وتجارة مصر في عهد محمد علي لأمين مصطفى عفيفي، ويلاحظ أنها موضوعات يتصل معظمها بتاريخ مصر الاجتماعي[٢] .

(١) Ibid., P. 100 .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى: شفيق غربال مؤرخًا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، لسنة ١٩٦٣.

بل إن كتاب علي الجريتلي: «تاريخ الصناعة في مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، والذي نشرته الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٥٠ قد تم بتوجيه من شفيق غربال، وإلى شفيق غربال أيضًا، يرجع الفضل في لفت أنظار الباحثين إلى أهمية الوثائق غير التقليدية في كتابة التاريخ الاجتماعي، فقد ذكر وهو بصدد التقديم لدراسة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم «تاريخ التعليم في عصر محمد علي» : « ومادة التاريخ هذه كل ما فيها له قيمة والمتعسف من المؤرخين هو الذي يعتبر تافهًا كل ما لم يتعلق بالسياسة العليا أو ما لم يصدر عن السلاطين أو ممثلي السلاطين، وأن دفترًا من دفاتر المحفوظات يدلنا على أرزاق الجند أو طعامهم ولباسهم، لهو وثيقة لها خطرها، ولا يستطاع كتابة التاريخ إلا بها وبمثيلاتها » .

إن هذه النظرة المقدرة لقيمة الوثائق وأهميتها، هي التي كانت وراء نشر شفيق غربال لواحدة من أهم وثائق تاريخ مصر الاجتماعي الحديث، وهي وثيقة حسين أفندي الرزنامجي، التي نشرها تحت عنوان «مصر عند مفرق الطرق ١٧٩٨- ١٨٠١ » عام ١٩٣٦م في مجلة كلية الآداب (جامعة فؤاد) وهي وثيقة تتحدث عن أوضاع مصر في الفترة السابقة للحملة الفرنسية.

وعمومًا : فإن أهمية شفيق غربال ترجع إلى أنه أول مصري تولى وظيفة أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة المصرية، كما أن الدراسات التاريخية قد تأثرت ولفترة طويلة باتجاه شفيق غربال وفكرته عن التاريخ. وإليه يرجع الفضل في طرق موضوعات تتصل بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، والذي ظهر في كتابات أحمد الحتة ومصطفى عفيفي وعلي الجريتلي وأحمد عزت عبد الكريم.

⊙⊙⊙